

عرض لآرائه ضدّ دعاة العامية في بلاد الشام.

د. عبد الإله نبهان

كان أساتذنا سعيد الأفغاني⁽¹⁾ - رحمه الله - متعدد الاهتمامات، متنوع الإنتاج، ترك آثاراً تنتمي إلى التاريخ كأسواق العرب؛ وعائشة والسياسة، وكتباً في النحو وتاريخه وأصوله وحقق كتباً أخرى ككتاب القراءات لابن زنجلة، وسيرة ابن حزم، كما كتب في الإسلاميات ككتابه الإسلام والمرأة. وكان من جملة ما كتبه ردوده على دعاة العامية وأعداء العربية، وقد رأيت أن أجعل من هذه البحوث موضوعاً أستعرض فيه أفكار الأفغاني في هذا الميدان.

إِنَّ التَّأْمَرَ عَلَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَالتَّهَجُّمَ عَلَيْهَا، وَالتَّخْطِيطَ لِإِقْصَائِهَا عَنْ مَيَادِينِ الْحَيَاةِ، لَيْسَ ادِّعَاءُ يَدَّعِيهِ أَنْاسٌ يَطِيبُ لَهُمْ أَنْ يَخْتَلِقُوا أَعْدَاءَ يَرُدُّونَ عَلَيْهِمْ وَيَجَادِلُونَهُمْ، وَلَيْسَ هُوَ سِوَا مَنْ أَنْاسَ بِلُغَتِهِمْ يَرْجُمُونَ كُلَّ مَنْ يَقْتَرِبُ مِنْهَا أَوْ يَقُولُ فِيهَا بِرَأْيٍ.. إِنَّ هَذَا التَّأْمَرَ حَقِيقَةٌ وَقَدْ ذُبِّرَ لَهُ بَلِيلٌ وَنَهَارٌ، وَأُنْفَقَتْ عَلَيْهِ السَّنَقَاتُ الْهَائِلَةُ، وَقَدْ ظَهَرَتِ الْوُثَائِقُ وَبَرَزَتِ الْحَقَائِقُ الَّتِي تَثْبِتُ وَجُودَ هَذَا التَّأْمَرِ وَتُكْشِفُ عَنْ وَجْهِ الْمُخْطَطِينَ لَهُ. بَلْ إِنَّ هُنَاكَ مَنْ صَرَحَ مُعْتَرِفاً بِمَا كَلَّفَ بِهِ، وَأَذَكَرَ فِي هَذَا السِّيَاقِ اعْتِرَافَ الدَّكْتُورِ لُؤَيْسِ عَوْضٍ⁽²⁾ فِي مُقَدِّمَتِهِ لِمَا سَمَّاهُ دِيْوَانَ شَعْرِ وَوَسَمَهُ بِـ"بُلُوْتَوْلَانْدِ وَقَصَائِدِ أُخْرَى" وَذَلِكَ عَامَ 1947 فَقَدْ ذَكَرَ أَنَّهُ "قَدْ عَاهَدَ الثَّلُوجَ الْغَزِيرَةَ الْمُنْشُورَةَ عَلَى حَدِيقَةِ مَدْسَمِرٍ فِي خُلُوةٍ مَشْهُودَةٍ بَيْنَ أَشْجَارِ الدَّرْدَارِ عِنْدَ الشَّلَالِ بِكَامْبَرِيْدِجَ أَلَّا يَخْطُ كَلِمَةً وَاحِدَةً إِلَّا بِاللُّغَةِ الْمِصْرِيَّةِ. وَقَدْ بَرَأَ بَعْدَهُ فِي الْعَامِ الْأَوَّلِ بَعْدَ عَوْدَتِهِ فَكَتَبَ شَيْئاً بِالْمِصْرِيَّةِ سَمَاهُ "مَذَكَرَاتُ طَالِبِ بَعْثَةٍ" وَلَكِنَّهُ اسْتَسْلَمَ بَعْدَ

* — أستاذ في قسم اللغة العربية بجامعة البعث. عضو اتحاد الكتاب العرب.

(1) - سعيد الأفغاني 1909 - 1997. انظر ترجمته في إتمام الأعلام 109 وأعلام التراث في العصر الحديث: 206 وفيه ذكر لمراجع أخرى.

(2) — لويس بن حنا عوض 1914 — 1990 كاتب مصري، وقف من الحضارة العربية موقفًا معاديًا. انظر: ذيل الأعلام 160 وكتاب أباطيل وأسمار لعمود محمد شاكر.

ذلك وخان العهد، فلتغفر له التلوج الطاهرة التي لم تدنسها حتى أقدام البشر⁽¹⁾."

ولكن قبل هذا بزمان، وفي عام 1893 كان ول كوكس⁽²⁾ قد ألقى محاضرة في نادي الأزبكية بالقاهرة عنوانها: "لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن" زعم فيها أن العامل الأكبر في فقد قوة الاختراع لدى المصريين هو استخدامهم العربية الفصحى في القراءة والكتابة وقدّم نصحه لهم ليستخدموا العامية في الكتابة كي يصيروا من المخترعين⁽³⁾ قال ول كوكس: "وأنتم أيها المصريون لن تزالوا قادرين على إيجاد قوة الاختراع لديكم كما فعلت إنجلترا، فإنه يوجد فيكم أناس كثيرون توفرت فيهم الشروط المارة، ولكن بسبب عدم وجود لسان علمي مشهور فيما بينكم لم تتحصلوا على شيء، وأضعتم أعمالكم سدى، والسبب في ذلك أن الكتب العلمية الدنيوية يؤلفها أربابها بكلام مثل الجبال، وفي آخر الأمر لا يلد هذا الكلام الصعب إلا فأراً صغيراً، وما نشأ ذلك إلا من كون اللسان العلمي غير مشهور فيما بين العامة، فبمجرد وضع الأفكار في الكتب تموت ولم تعد تحيا، فكأنهم يكفنونها في السورق ويدفنونها في جلود الكتب. واللغة العربية الأصلية كانت قوية جداً مشحونة بالألفاظ الشهيرة كما أنها كانت مشتملة على ألفاظ كثيرة ضعيفة، وعلى مر الزمان غلبت القوية الضعيفة وكونت لغة قوية. ولكنكم أيها المصريون أصبحتم تقولون إنها لغة دارجة لا ينبغي اتباعها وجنحتم في مؤلفاتكم إلى اللغة الضعيفة الخفية التي مانت منذ زمن بسبب مزاحمة القوية لها، وأقول لكم: إذا جنحتم إلى هذه اللغة الدارجة القوية الشهيرة فيما بينكم وتركتكم هذه اللغة الضعيفة تتجحون كثيراً"⁽⁴⁾

وبغض النظر عما في هذا الكلام من ركاكة وإسفاف أسلوبياً وفكرياً فإنه يمثل تحريضاً من مهندس بريطاني لمتعلمي المصريين آنذاك ليكتبوا بالعامية ويتخلّوا عن العربية. ولسنا هنا بسبيل التأريخ للمؤلفات الداعية إلى نبذ الفصحى واستخدام العامية ولا التأريخ لأولئك الذين نصبوا دعاءة.. وإنما أردت أن أشير إلى مدى جدية هذه الدعوات وارتباطها بالاستعمار.. فقد ارتبطت بالاستعمار الإنكليزي في مصر، وبالأستعمار الفرنسي في بلاد الشام "وكان زعيم الحركة الرامية إلى الكتابة بالعامية وبالحرّف اللاتيني الاستعماريون الفرنسيون وعلى رأسهم المستشرق الفرنسي والموظف في قسم الشؤون الشرقية في وزارة الخارجية الفرنسية لويس ماسينيون⁽⁵⁾، ولقد حاول ماسينيون أن يبيث دعوته هذه في المغرب وفي مصر وفي سورية ولبنان خاصة، وكذلك سعى لهذه الغاية مبشرون واستعماريون من أمم أخرى"⁽⁶⁾ وقد أشبعت القول في تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر

(1) - بلوتولاند: 13.

(2) - ول كوكس: مهندس ربيّ بريطاني آل إليه ترؤس مجلة الأزهر سنة 1893.

(3) - تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر: 100.

(4) - المرجع السابق: 36.

(5) - لويس ماسينيون 1883 - 1962. مستشرق فرنسي من أعضاء جمعي القاهرة ودمشق وكان من موظفي وزارة

الاستعمارات في شبابه ثم مستشاراً لها بقية حياته. الأعلام 5: 247.

(6) - التبشير والاستعمار: 225.

البلاد العربية هي اللغة العربية، وقد عملت جميعاً على دعم هذا المطلب بكل ما تملك من قوة، إيماناً منهم ببديهة مسلمة: هي أن اللغة أولى مقومات الأمة ولا تقوم لها بدونها قائمة⁽¹⁾.

وكان قيام الثورة العربية الكبرى عام 1916 ثم تأسيس الحكومة العربية في دمشق في 10/5/1918 إيذاناً ببدء عهد جديد. إن الذين كانوا يحاربون التتريك ويعملون على نشر العربية قد تسلموا السلطة، وما كانوا يطالبون به من تغيير وتعريب أضحت مقدراته في أيديهم، فأصبحت شعارات المظاهرات بالفصحى، وأضحت لغة الجيش والإدارة هي العربية بعد أن اتجه المسؤولون إلى تعريب كل ما يتعلق بالجيش والدواوين والإدارة تعريباً شاملاً، واستبدلت بالمصطلحات التركية المصطلحات العربية وقد "ألف الحاكم العسكري في 1918/11/28 أي في الشهر الثاني لجلاء الأتراك شعباً إدارية وفنية لإنجاز أعمال الدولة الجديدة فكانت "الشعبة الأولى للترجمة والتأليف" لتعريب الدواوين ونشر العربية بين الموظفين، وسميت هذه الشعبة بعد أن ضم إليها شؤون المعارف العامة بـ "ديوان المعارف" وأسندت رئاسته إلى محمد كرد علي⁽²⁾ في 1919/2/12 وكانت لجنة المصطلحات فيها برئاسة ساطع الحصري⁽³⁾ وعضوية كل من عز الدين التنوخي⁽⁴⁾ وحبيب اصطفتان⁽⁵⁾، ثم فصلت الشعبة الأولى عن ديوان المعارف واستقلت باسم المجمع العلمي العربي بدمشق في 1919/6/8⁽⁶⁾.

ونلاحظ من مقارنة التواريخ أنه في الوقت الذي كان فيه الهجوم على العربية على أشده في مصر كانت العربية قد بدأت تنتعش وتنتفخ في الشام وقد صور الأستاذ الأفغاني هذه المرحلة مرحلة العهد الفيصلي التي لم تدم أكثر من سنتين (من 1918/10/5 – إلى 1920/7/24) بقوله:

"أما في حساب الزمن فقد كان كالحلم الخاطف، لم يعمّر سنتين، نعمت البلاد فيه بالسيادة والسعادة، وعاشته ساعة ساعة بل لحظة لحظة، إنه عهد إحياء ونشور، كان فيه الأفراد والجماعات تتضافر في بناء حياة وبعث لغة وتأسيس كيان، وأما في حساب النتائج والثمرات فما أسس حينئذ بقي يعمل بقوة الدفع والاستمرار إلى أيامنا هذه (أي عام 1961) وما نزال في خير تلك الدفعة من النهضة نتقدم على رغم ما عرا السير من توقف حيناً ونكسة حيناً، ولقد كان من قوة هذه الانطلاقة أن تأبّت على الحديد والنار وكل ما تمخض عنه الخبث الاستعماري الفرنسي من خطط

(1) – حاضِر اللغة العربية: 35.

(2) – محمد كرد علي 1876 – 1953 مؤسس المجمع العلمي العربي بدمشق وكان رئيساً له حتى وفاته. الأعلام 6: 202.

(3) – ساطع الحصري 1883 – 1968. ساطع بن محمد هلال الحصري أبو خلدون. انظر الأعلام 3: 70.

(4) – عز الدين التنوخي الدمشقي 1889 – 1966. المسمى عز الدين علم الدين من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق ومولده ووفاته فيها. الأعلام 4: 229.

(5) – حبيب بن جرحس اصطفتان 1888 – 1946. ولد ونشأ بلبنان. كان من رجال الملك فيصل بدمشق. توفي في البرازيل. الأعلام 2: 165.

(6) – حاضِر اللغة العربية: 60.

ماكراً حلوة المظهر فتآكة المخبر مدة خمس وعشرين سنة من الاحتلال العسكري⁽¹⁾.

ويلاحظ أن الدعوة إلى العامية نشطت في عهد الاستعمار الفرنسي بتشجيع من المستعمرين الذين حاربوا العربية بوسائل عديدة حتى إنهم منعوا أناشيد وقصائد وطنية⁽²⁾، وعملوا في الخفاء كثيراً وفي العلن قليلاً، هجوماً على العربية وتشجيعاً للعاميات، لكن ما انطوت عليه النفوس من حماسة للعربية وحباً لها واستعداداً للتضحية في سبيلها، جعل من تلك المحاولات الفرنسية أمواجاً لا تلبث أن تتكسر على صخور الإرادة الصلبة. وقد صور الأستاذ الأفغاني هذا الوضع بقوله: "لقد كان حال اللغة الفصحى في المدارس والصحف والنوادي من القوة بحيث لم تكف برّد الهجمات، بل زادت إلى ذلك نمواً في قوتها وانتشارها وتمكنها في النفوس تمكناً ما يزال يقوى على رغم التشكيك والعراقيل والمكايد والأحاييل"⁽³⁾.

غير أن محاولات المستعمرين وأعوانهم لم تتوقف، فإن وحدة هذه اللغة كانت وما زالت معلماً من معالم القوة في الأمة العربية، وكانت المدارس الفرنسية هي المنطق الذي انطلقت منه هذه الدعوات⁽⁴⁾، فكانت بواسطة مجنديها وأعوانها لا تتوقف عن الدس وبث السموم واختلاق المشكلات وافتعالها، وقد جمع الأستاذ الأفغاني خيوط هذه الدعوات فوجدها تنحصر في ثلاث مشكلات هي:

1 - تباين العامية والفصحى.

2 - الحرف العربي.

3 - القواعد والإعراب⁽⁵⁾.

ويلاحظ أن هذه المشكلات هي نفسها التي افتعلها المستعمرون في مصر وفي الجزائر وفي غيرهما.

والأفغاني الذي أرخ لحاضر اللغة في بلاد الشام من آخر العهد العثماني، مروراً بعهد الاستعمار الفرنسي وعهد الاستقلال حتى عام 1961 كان لابد له من وقفة ما تجاه هذه الدعوات الهدامة، وسنعرض لموقفه تجاه كل من هذه المشكلات.

أولاً: تباين العامية والفصحى:

معروف أن العربية التي درجنا على تسميتها بالفصحى - وبعض الأساتذة اليوم يفضلون الفصيحة - إنما هي لغة جامعة يقرؤها ويكتب بها ملايين العرب من المغرب إلى المشرق، إضافة إلى ملايين المسلمين الذين يحرصون على تعلمها، ومنهم من يتقنها.. هذه اللغة الجامعة كانت وما

(1) - حاضر اللغة العربية في الشام: 57.

(2) - المرجع السابق: 79.

(3) - المرجع السابق: 75.

(4) - التبشير والاستعمار: 226.

(5) - حاضر اللغة العربية في الشام: 157.

زالت ركناً ركيناً من أركان الروابط الأساسية بين أقطار العرب مهما تعددت اتجاهاتهم السياسية وتضاربت مصالحهم الاقتصادية... لذلك كله دأب المستعمرون في العصر الحديث على محاربتها بحجج مختلفة داعين إلى إحلال العاميات المحلية مكانها، ونجد في هذا السياق أسماء مؤلفات صدرت آنذاك على هذا النحو: (1)

- قواعد اللهجة اللبنانية السورية للأب رفايل نخلة (2) والكتاب موضوع بالفرنسية.
- التحفة العامية في قصة فنيانوس تأليف شكري الخوري (3). نشرها الأب لاي اليسوعي مؤلفة بلغة لبنان العامية ضمن المطبوعات اليسوعية.
- في مثلوهلكتاب للخوري مارون غصن (4) أحد المدرسين في مدرسة عنطورا بلبنان.
- حياة اللغات وموتها، اللغة العامية. تأليف الخوري مارون غصن الحائز وسام المعارف من الحكومة الفرنسية. المطبعة الكاثوليكية. بيروت 1925.
- وتبرز في مجال الدعوة إلى العاميات ومناهضة العربية الفصحى أسماء مثل أنيس فريحة (5) وسعيد عقل (6) ويوسف الخال (7) وقد جمع الأستاذ الأفغاني حجج هؤلاء ولخصها دون أن يلج في تفاصيل مرجعياتها قال:
- "دعا الدعاة إلى العاميات المحلية في بلادنا منذ مطلع هذا القرن، وكانت الحجج التي أدلوا بها هي الحجج التي نسمعها اليوم (1961) مرددة مملولة ممجوجة لم تتغير ولم تتبدل:
- 1 — يجب أن نكتب للناس باللغة التي يتداولونها في السوق.
- 2 — إن الفصحى لغة ثانية غير لغة التخاطب ولا يتوصل إليها إلا بعد دراسة ومراعاة.
- 3 — العامية سهلة والفصحى صعبة، فإذا ألفنا بالأولى نشرنا الثقافة في ميدان متسع ولم نحرم غير المتعلمين.
- 4 — العامية لغة الحياة في الأسواق والمنازل، والفصحى لغة الكتب على الرفوف والحياة تقرض قانونها على رغم الأنوف.

(1) — انظر: المرجع السابق: 167. والتبشير والاستعمار: 226.

(2) — رفايل نخلة لم أقم له على ترجمة فيما رجعت إليه.

(3) — شكري بن عبد الله الخوري 1870 — 1937. صحفي لبناني. هاجر إلى البرازيل 1896. كتب قصصاً باللغة العامية. الأعلام: 3: 172.

(4) — مارون غصن 1880 — 1940 مولده ووفاته بيروت. كان مدرساً في مدارس الآباء اليسوعيين. الأعلام 5/ 253.

(5) — أنيس فريحة: 1903 — 1993 باحث في اللغة متحن على الفصحى. ذيل الأعلام: 49.

(6) — سعيد عقل: من كبار الشعراء. ومن كبار الدعاة إلى العامية والحرف اللاتيني. ما يزال حياً.

(7) — يوسف الخال 1916 — 1987. ولد في قرية عمار الحصن في سورية وانتقل إلى طرابلس لبنان وتخرج في قسم الفلسفة في الجامعة الأمريكية ببيروت. إتمام الأعلام: 318.

وجود هذه الظاهرة إذن في اللغة العربية بالأمر الشاذ، ونحن لو تتبعنا تاريخ اللغة العربية لوجدنا أن هذه الظاهرة تلازمها منذ أقدم عصورها⁽³⁾. إن ملاحظة الدكتور نفوسة لا تختلف في جوهرها وفحواها عن رد الأستاذ الأفغاني الذي سبقها رده بنحو من أربع سنوات مع اختلاف مرجعية كل منهما. تسأل الأستاذ الأفغاني وأجاب: "أي لغة عربية لا ازدواج فيها بين لغة الأرقّة ولغة المتعلمين؟ الألمانية؟ الفرنسية؟ الإنكليزية؟ لا شيء من ذلك البتّة، والذي يعرف الفرنسية أو الإنكليزية في قراها يدرك فارقاً يذكر بالفارق بين فصحاء وعامياتنا، بل إن الفرنسية الفصحى لم تكن لغة الشعب الفرنسي الدارجة، وإن الفرنسيين كانوا يجهلون هذه اللغة الجديدة التي انتشرت بواسطة وسائل التثقيف والوحدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وهذا المنطق الفرنسي هو غير المنطق الذي طلع به علينا دعاة العامية في لبنان، فهم يريدون أن يجعلوا من العامية لغة جديدة. أما في فرنسا فقد أزيلت اللغات العامية وأقيمت مقامها الفصحى.. ولا يزال الباريسي حتى اليوم لا يفهم لأول وهلة المواطن الفرنسي الذي يسكن في ليموزان Limouzin أو يتكلم لهجته ولغته المحكية المعروفة بالباتوا Patois".⁽⁴⁾

وقد نقل الأستاذ الأفغاني نقلاً مشابهاً يتعلق باللغة الألمانية عن مجلة الرسالة التي كانت تصدرها إدارة الصحافة والإعلام لحكومة ألمانيا الاتحادية⁽⁵⁾ وعلق على ذلك بقوله:

"وهكذا تجد أن دعاوى أنصار العامية لا يؤيدها واقع ما، بل إن الواقع والحقائق تؤيد عكسها، فهذه الأمم الراقية وجدت من دواعي المحافظة على وحدتها واطراد رقيها الحضاري إنشاء لغة فصحى جامعة، ونحن حباناً لله فصحى قوية راقية قد جمعنا فعلاً في وحدة روحية مضى عليها أربعة عشر قرناً تتمنى الأمم الراقية أن تحظى ببعضها، فلما لم يكن لها فصحى سعت هي سعيًا حثيثاً فخلقت فصحى مفتعلة ومضت بها إلى الأمام، ووجد في بلادنا من يدعو إلى تفكيك هذه الوحدة، وطرح تلك الفصحى لتتنبه - زعموا - بالأمم الراقية. وقد عرفت شأن الأمم الراقية الآن".⁽⁶⁾

وأشار الأفغاني إلى أن تبني الفرنسيين الدعوة إلى العامية في داخل بلاد الشام (حكومة سورية) لم يقدم أيّاً من النتائج المطلوبة "فطووها داخل الشام وركزوها في ساحله (حكومة لبنان الكبير) حيث

(1) - حبر بن ميخائيل ضومط 1859 - 1930. أديب خدم العربية تدريساً وتأليفاً. ترجمته في الأعلام 2: 108 - 109 والإشارة هنا إلى مجلة السيدات والرجال 6: 449.

(2) - هنري بورش: لغوي فرنسي أشارت إلى كتابه د. نفوسة وقالت: إن موضوع كتابه هو دراسة اللغة العامية الفرنسية وبيان مدى اختلافها عن اللغة الفرنسية الأدبية.

(3) - تاريخ الدعوة إلى العامية: 3.

(4) - حاضر اللغة العربية 162 - 163 والنقل فيه عن كتاب: دعاة العامية هم أعداء القومية العربية للدكتور سعيد شهاب الدين: 17.

(5) - أحال الأفغاني على العدد 47 ص 3 - المجلد الثاني. بون 1960/11/18.

(6) - حاضر اللغة في الشام: 163.

التي هم بصدددها في عصر البناء، وكان يكرر هذه الفكرة كلما سحنت له فرصة في محاضراته، كما أنه دون هذا في كتابه إذ يقول: "ولا أرى لأحد من أهل الفضل والغيرة أن يشتغل برد كيد الكائدين من دعاة العامية، فإن ذلك يثبت لهم وجوداً، وهو الأمر الذي يبيغونه، ومنه معاشهم، لندعهم ينعمون ولنمنض قُدماً في سبيلنا المرسومة نتمم ما بدأته أجيال قبلنا، ولناخذ القدوة من أرقى أمم الحضارة التي تعتز بوجودها اللغوي الرفيع، ونتمسك به على مافيه من عوج وعقبات وصعوبات و(لا منطقية)⁽¹⁾" وضرب مثلاً من ألمانيا سبقت الإشارة إليه كما ضرب مثلاً حياً "بعدو" مجاور عرف طريق الحياة والقوة فسلكه وخلق بإصراره وقوة وعيه لغة لم يكن لها وجود ملحوظ قبل خمسين سنة والعاقلة من استفاد من عدوه ولم يعم عن حسناته، هؤلاء اليهود كانوا مطلع هذا القرن (العشرين) مبعثرين في القارات الخمس تتكلم جالياتهم لغات لا حصر لها، عرف علماءهم أن لا سبيل إلى جمع كلمتهم إلا بلغة جامعة، فأخذوا أنفسهم جيلاً بعد جيل بإحياء العبرية القديمة الميته يتعلمونها إلى جانب لغة الشعب الذي ينزلون بلاده، فكان صنيعهم هذا الذي بدا للناس حينئذ نوعاً من الجمود والجنون وإضاعة الوقت هو الذي خلق منهم أمة ودولة وجامعة انتزعت لها مقراً وسكناً من أعز بلاد الناس، الناس الذين حباهم الله لغة جامعة لا مثيل لها في قوتها ورسوخها في الزمن والمكان بين جميع لغات الأرض"⁽²⁾ ويقول مستاء: أما نحن فما زال فينا من يتسائل على ملأ منأ: أنكتب بالفصحى أم بالعامية!!؟.

ثانياً: الحرف العربي والحرف اللاتيني:

كان عبد العزيز فهمي⁽³⁾ عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة من أكبر الذين أثاروا اللغط بدعوته إلى استبدال الحروف العربية بإحلال اللاتينية مكانها وذلك في 1943/5/3 لكن هذه الدعوة كان لها أصحابها من الإنكليز قبل عبد العزيز فهمي، وإنما ارتبطت به من حيث كونه عضواً مجتمعياً، له قدره، مما جعل من دعوته المعلنة من رجل جليل في نظر الناس مثار لغط وأخذ ورد وشغل بها الناس مدة إلى أن تلاشت تلاشي الزيد⁽⁴⁾.

وعرض الأستاذ الأفغاني في بحثه للسبب المباشر الذي جعل بعض المستشرقين يجار بالشكوي من الحرف العربي فقال ما معناه: إن الضرورات الاستعمارية دفعت بنفر إلى تعلم العربية، وتعلم أي لغة من اللغات يحتاج إلى جهد ومعاناة، فتوهم بعض هؤلاء صعوبات وأهوالاً في اللغة العربية دون أن يفكروا أن هناك مثلها في لغتهم الأم حتى إن أحدهم قال: "إنني أؤثر أن أجتاز إفريقية كلها

(1) - حاضره اللغة العربية: 170.

(2) - المرجع السابق: 171.

(3) - عبد العزيز فهمي 1870 - 1951 من رجال القضاء بمصر، كان رئيساً لحزب الأحرار الدستوريين 1924 سمي عضواً في

مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة 1942. عن الأعلام 4: 24.

(4) - تاريخ الدعوة إلى العامية: 208.

ماشياً من الاسكندرية إلى رأس الرجاء الصالح على أن أشرع ثانية في تعلّم اللغة العربية⁽¹⁾. وكانت هذه الدعوة إلى كتابة العربية بالحروف اللاتينية تموت في مكان لتظهر في آخر. قال الأفغاني: "ولم ييأس الاستعمار بما أوتي من صلف وتسلسل وقوة من محاولته مدة ستين سنة يغرر بمن لا خلاق له مناً، ويمهّد بأساليبه الخفية ويبسر له منابر يدعو من عليها إلى ما لقنوه إياه، ثم تكون بلبله وتموت المحاولة وتقول: ذهبت إلى غير رجعة، فلا تمشي سنوات حتى تظهر في قطر آخر بمظهر جديد وهكذا دواليك. والغريب في الأمر أن هؤلاء الدعاة الأجانب ومن حملوه دعوتهم يدعون للغة العربية صعوبات ما منها واحدة إلا في لغاتهم الأجنبية مثلها أو أشد منها، يعلمونها هم حق العلم، لكن لغاتهم على عَجَرها ويُجرها مقدسة لا تمس، لأنها لغات دول قوية ذات أساطيل ومدمرات، ولغتنا لغة شعوب مغلوبة على أمرها فعليها أن تزول تدريجياً من الحياة دعامة بعد دعامة حتى ينهار البناء كله"⁽²⁾. ويستغرب الأفغاني من هؤلاء الذين يبشرون فيما بيننا بمنافع الحرف اللاتيني لم لا يبشرون به بين أصحابهم اليهود الذين كانوا يحاولون إحياء حروف لغتهم الميتة ولم يستخدموا الحروف اللاتينية... ويرى أن السبب في ذلك هو أن "هذه الدول الاستعمارية أرادت للصهيونية القوة والحياة وأرادت للعرب الفشل والموت فصرفت عنها كل ما رمتا به من المهدمات"⁽³⁾ ولما كان المرحوم الأفغاني يورخ للعربية في الشام تاريخاً فإنه لم يسلك في بحثه سبيل الأخذ والرد، بل دخل في الأمر من أقرب أبوابه فذكر أن جريدة "الاسيري" الفرنسية في بيروت كانت أول من تولّى الدعوة إلى الحرف اللاتيني منذ أول الاحتلال الفرنسي عام 1922، وضربت له أمثلة من شعوب أعجمية حاولت هذه المحاولة في أذربيجان وأنقرة، وعربت جريدة "ألف باء" الدمشقية هذا المقال في 12/19/1922 وطلبت إلى المجمع العلمي العربي بدمشق رأيه بالموضوع، وذكر أن المجمع عهد بالجواب إلى الأستاذ الياس القدسي⁽⁴⁾ أحد أعضائه، فدرس الموضوع مفصلاً ورفضه رفضاً باتاً. قال الأفغاني: "ولم تحاول الدعاية السيئة محاولة سافرة داخل الشام فيما بعد، ولهذا الرد قيمته التاريخية فقد كان قبل أربعين عاماً والاحتلال العسكري على أشده في الشام ساحلاً وداخلاً، وله دلالاته الظاهرة على إفلاس الدعوة، إذ كانت الحجج قبل أربعين عاماً هي التي يرددها نفر قليل من الكتاب الآن"⁽⁵⁾ (1961) وسنورد آراء الأستاذ الياس قدسي كما لخصها الأفغاني:

1 - الأذربيجانية والتركية والأرمنية... فروع من الأسرة الهندية الأوروبية (السنسكريتية) فضرب المثل بها جمعاً للمتباعدين كل التباعد، أما المعقول جداً فإن يقترح للغات السامية كلها أن تكتب بحروف عربية لأن اللغة العربية أتت بعدهن مصلحة ومتممة لما سبقها من فروع.

(1) - حاضر اللغة العربية: 176.

(2) - المرجع السابق: 177.

(3) - المرجع السابق: 177.

(4) - الياس عبده القدسي 1850 - 1926 من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق مولده ووفاته فيها. الأعلام 2: 10.

(5) - حاضر اللغة العربية: 179.

2 - صرح الاقتراح بأنه استهدف أمرين: التسهيل على الأوروبيين تعلم العربية، والثاني تسهيلهم على المستشرقين والعوام أيضاً تعلم العامية كتابةً. وقد أجاب عن الأول بأن كل لغة أوروبية اصطلاح مستشرقوها على كتابة العربية برموز لا تشبه رموز غيرها من اللغات. فلو ضبطت بالحروف اللاتينية لوقعت البلبلة ومثل لذلك بالحرف (ش) فإن تصويره عند الفرنسيين يكون بحرفين معاً (ch) وهذان يُقرأن بالإنكليزية تارة (شيناً) وتارة (تشيناً) وتارة (كافاً) ولا سبيل إلى ضبط ذلك بالدقة. أما الثاني فإن العامية إذا كتبت بالأحرف العربية قرأها كل ذي لهجة ب لهجته، فالصورة واحدة وطرق الأداء تختلف بالعشرات بل بالمئات فلهجة حمص في النطق لا تشبه لهجة حلب ولهجة طرابلس الشام لا تشبه لهجة صيدا، وكلتاها لا تشبهان لهجة القلمون. ومع هذا فيتفاهم الجميع كتابةً لأن الصورة واحدة، فلو عملنا بالاقتراح وصورناها بالحرف اللاتيني لوجب أن نكتب بصورة شتى على عدد اللهجات، ولن يمضي زمن طويل حتى تتباعد هذه اللهجات لتصبح لغات متباعدة، وهذا تصعب لا تسهيل، والذي يمسك كل هذه اللهجات الآن في وحدة: تصويرها جميعاً بالحرف الذي تصور به اللغة الجامعة.

3 - الحروف اللاتينية غير ثابتة اللفظ: "لأن الشعوب التي تفرعت لغاتها عن اللاتينية كالفرنسيين والإنكليز والإسبان والإيطاليين والبرتغاليين والفلامان والرومان والدانماركيين والأسويجيين والنرويجيين، كل منها يلفظ الحروف مختلفة عن لفظ اللغات الأخرى لها" وتأتينا رسالة بالفصحى من مراکش أو الهند فنقرأها كما كتبها وكما لفظها مرسلها، ونقرأ شعراً من شعر الجاهلية (قبل 1500 سنة) فنلفظ كلماته كما لفظها قائله. أما اللغة العامية فلا يضبط لفظ كلماتها، لا اللاتينية ولا سواها، وأقرب الطرق لضبطها حروفنا العربية وشكلها".

4 - للحروف العربية ميزة ليست في الحروف اللاتينية ولا في حروف اللغات السامية نفسها "إن حروف هذه اللغات مفككة بعضها عن بعض كأنها مسمارية بينما الكلمات العربية يلتصق أكثر حروفها ببعضه ببعض، وهذا الالتصاق يجعلها كتلة واحدة يشملها النظر بالحال، كأنها كتابة اختزال.. فالكتب العربية والجرائد سطورها بعيدة بعضها عن بعض فلا تضرب النظر، أما سطور اللغات الأوروبية فإنها قريبة بعضها من بعض، وأكثر الحروف قائمة ومتشابهة، وهذا ما يضرب النظر، ويجعل أولئك القوم يستعينون بالنظارات لأن أكثرهم يصبحون قصيري النظر بهذا السبب".

5 - "إن اللغة ألفاظها وكتابتها تحفظ معانيها وقومية المتكلمين بها.. فهل يجوز أن نترك الكنوز المحررة بها لنرضي بعض المستشرقين وهل يقبل الأجانب أن نعرض عليهم ترك حروفهم واتخاذ حروفنا لتضبط ألفاظهم بها أو أي لغة موجة كاللغة الإنكليزية مع أن حروفها لاتينية... والاختلاف بلفظ الكلمات لا نراه في لغتها العامية فحسب بل يشمل هذا

التموج بالإنكليزية الفصحى⁽¹⁾

واستظهر الأفغاني بعد ذلك برءً قويًّا كتبه المستشرق الفنلندي يوحنا أهنتين كرسكو⁽²⁾ ونشره في مجلة المجمع العلمي العربي⁽³⁾ وعنوانه: "في أوهام الأوروبيين في صعوبة تعلّم العربية" قال الأفغاني: "أوصي بقراءته كاملاً فقد حوى مقابلة موضوعية بين اللغة العربية واللغات الأوروبية أدباً ولغةً وصرفاً ونحواً ونطقاً وكتابةً، وعلى مقاله عدا علميته ومنهجيته سمات الإحاطة وعمق الدرس وجمال الإنصاف وهو الذي سَمَّى المشاكل المزعومة للغة العربية بالأوهام الهرمة فقد ذهب إلى "أنّ تحصيل اللغة العربية أسهل على الطالب الأوروبي من تحصيل غيرها من لغات العالم، وأنه يصرّ كل الإصرار على أنّ آراء الأوروبيين نتائج أوهام هرمة وبوادر خيالات سائخة" ثم ذكر رأي "كرسكو" في قضية الكتابة بالتفصيل وأورد طرفاً من ردّه على "مرجليوث"⁽⁴⁾ الذي كان يدعو إلى وجوب اتخاذ اللغة الإنكليزية فقط وسيلة اتصال بين شعوب العالم كلّه أجمع. ولكي نصوّر حرص الاستعمار على إشاعة الحرف اللاتيني وإحلاله محلّ العربي نورد خبراً كتبه الأفغاني وكان هو شاهده قال: "ولقد حضرت أنا نفسي مسعى من هذا الديب الخفيّ قبيل الحرب العالمية الثانية: كنت والأستاذ المرحوم محمد كرد علي في حديقة داره، فإننا لتتذكر في بعض الأمور، وإذا بالأستاذ يقف ويتّجه نحو باب الحديقة ليستقبل زائراً طاعناً في السن يتقدّم بخطى ثقيلة جداً ينقلها بصعوبة وببطء، وكلّما رفع رجلًا وحطّها تقفل كل عظم في بدنه، وبعد دقيقتين قطع العشرين متراً بين الباب والمجلس فقدمه لي الأستاذ بقوله: (مرغليوث) وعرقه بي فهزّ رأسه هزّ العارف. لم يطل مجلسه أكثر من نصف ساعة عرفت فيه أنّ حكومته أوفدته بمهمة من لندن ليبيت ليلةً في دمشق وثانية في القدس ليحيط الثالثة في مطار طيران على موعد مع الشاه. وعجبت: أما تجد حكومته غير هذا الشيخ المخلع الفاني ليقوم بمهامّها ويدعم إمبراطوريتها، ثم زال عجبني حين رأيته يهجم على موضوعه دون تلبّث، فيناقش الأستاذ كرد علي، ما الذي أبطأ بالبلاد العربية عن الاقتداء بتركية في اتخاذ الحروف اللاتينية؟ ولم أضاعوا على أنفسهم هذا الرقيّ الباهر؟.

فأجابه الأستاذ بلطف وصدق واسع — على قلة صبره على سماع مثل هذه الدسائس — مشيراً إلى خطأ هذه الفكرة، وأن وراءها أضراراً على العرب لا تحصى، وأن الأتراك أنفسهم أضاعوا مركزهم في الشرق بتبديل حروفهم... فمارى مرغليوث في كل ما سمع، وقال: إن أمله وطيد في أن يحذو الشاه حذو أتاتورك، وأن العرب لا يحملهم على تغيير كتاباتهم إلا حاكم قوي مثل أتاتورك أو الشاه (بهلوي) وأنه مسافر إلى طهران لدراسة أسباب تأخر الشاه عن المبادرة إلى فرض

(¹) — حاضِر اللغة العربية: 179 — 180 — 181.

(2) — یوحنا اُمتنین کرسکو: من اُعضاء الجمع العلمی العربی بدمشق.

(3) — ذكر الأفغاني أن الرد المذكور في الجند الرابع من مجلة الجمع ص 483 تشرين الثاني 1924.

(4) - دافيد صموئيل مرحليوث 1858 - 1940 إنكليزي، بروتستانتي. من كبار المستشرقين، كان عضواً في المجتمع العلمي العربي بدمشق. مولود ووفاته بئنان. نشر عدداً من آثار العرب. له في لغته كتب عن الإسلام والمسلمين لم يكن فيها مخلصاً للتعليم. الأعلام 2: 329.

الأحرف اللاتينية⁽¹⁾

أشار الأفغاني إلى أن أصحاب هذه الدعوات المشبوهة قد انحصروا في ساحل الشام (لبنان) وأن هذا الساحل "قد شهد من أبطال الحفاظ على اللغة في القرن الماضي ما لم يشهد مثله في الداخل، وكان يجب أن يكون هذا محطّ العجب لولا ظهور السبب، فالعرب في ساحل الشام (لبنان) بلغة الإدارة) كالعرب في داخله دماً وأصولاً وآمالاً وآلاماً لكنّ حملة ذكية خبيثة قامت بها دول الغرب الطامعة في بلادنا خلقت من الساحل جواً قلقاً موبوءاً حتى اليوم"⁽²⁾ ويذكر الأفغاني الفتنة التي افتعلها الاستعمار عام 1860⁽³⁾ وما تلاها من تنازلات الدولة العثمانية، ثم يذكر تشجيع فرنسا لهذه الدعوات المشبوهة بعد احتلالها ساحل الشام (لبنان) عام 1919 ويشير إلى استمرار هذه الدعوات في ذلك الساحل إلى وقت قريب من الوقت الذي كان يكتب فيه كتابه وهو عام 1961 قال:

"إنّ هذه الدعوات التي ولدت ميتة في داخل الشام وجدت في الساحل الهواء الذي تنفسه ولو هواءً مخلخلاً وفي بيئات ضيقة قليلة أجنبية قلباً وقالباً أو قلباً فقط. فقد عرفت أن نشرتين صدرتا في الأعوام القريبة باللهجة العامية والحرف اللاتيني، الأولى للأب رافائيل نخلة والثانية بقلم سعيد عقل وأن رسالة عقت عليهما وعلى الدعوة الهدامة من أساسها للدكتور سعيد شهاب الدين"⁽⁴⁾ وهنا يثني الأفغاني على أطروحة الدكتور شهاب الدين ويرى أنها فنّدت وأبطلت حجج هؤلاء...

ويعرّج الأفغاني في آخر بحثه على "فتنة" عبد العزيز فهمي التي تركزت في مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام 1943 وكنا أشرنا إليها، وخلص الأفغاني تلك الواقعة بقوله: "واستمرّ الجدل شاغلاً المجمع عن أعمال ثلاث سنين كوامل. انتهى برفض الدعوة" ويعلق قائلاً: "وكان حريّاً أن يكون هذا إخفاقاً لا نجاحاً، لكننا إذا عرفنا أن غاية هذه الدسيسة إما الهدم وإما عرقلة البناء وأنها آلت إلى الثاني أيقناً أن عدونا نجح، وأن آتته إلى النجاح أعوان متطوعون منا عن سوء نية أو غفلة وسذاجة، ولو حسبنا ما أنفقت الدولة على المجمع هذه السنين الثلاث وما أضاع أعضاؤه ومتبعوه أخباره من جهد ووقت، وما شغلت الناس هذه الفتنة عن مصالحهم هالكا عظم الخسارة علينا وغنيمة أعدائنا منا، ولولا أن الشام شغلت بأصداء هذه البلبلة في مجمع القاهرة، وهمّا أمرها بل غمّاً أيضاً، ما عرضت له، ولكن البلاد العربية تعيش اليوم (1961) كالبلد الواحد، لا يلقى في حيّ من أحيائه بقذيفة إلا تجاوبت الأصداء في كلّ الأحياء:

إذا ألّمت بوادي النيل نازلة باتت لها راسيات الشام تضطرب"⁽⁵⁾

(1) حاضر اللغة 184-185.

(2) حاضر اللغة العربية: 185.

(3) انظر "تاريخ الدولة العلية العثمانية" 251 وما بعدها. و"النشيد والاستعمار" 137 وحاضر اللغة 185.

(4) حاضر اللغة العربية: 187.

(5) حاضر اللغة العربية 189.

ثالثاً: صعوبة القواعد والإعراب في اللغة العربية:

اقتترنت الدعوة إلى العامية بالصراع بين دعائها وبين حُماة الفصحى، وقام من يدعو إلى التجديد والإصلاح والتيسير في مجال اللغة والنحو، وانحرف بعض الدعاة فدعا إلى تمصير اللغة العربية كأحمد لطفي السيد⁽¹⁾ ومحمد تيمور⁽²⁾ وعبد العزيز عبد الحق⁽³⁾، ودعا بعضهم إلى تيسير نحو العربية وكتابتها ومادتها وذلك لصعوبتها⁽⁴⁾. وقد اتجه الأستاذ الأفغاني في بحثه إلى بيان الأسباب الكامنة وراء ما يظهر أنه صعوبات في اللغة العربية فرآها في طرائق التعليم وكتبه فقد كانت قواعد اللغة العربية تدرّس حتى منتصف القرن التاسع عشر في الكتب القديمة الصفراء المثقلة بالحواشي والشروح والتقارير والردود، فإذا أضفت إلى ذلك عقم التدريس وأخذ الطلاب باستظهار المتن في النحو والصرف أدركت العناء الذي كان يلقاه الصغار في تعلّم العربية، هذا شأن العرب فما بالك بالأجانب الذين يتعلمون لغتنا⁽⁵⁾. لقد وضع الأستاذ يده على العلة، إنها ليست في اللغة، لأنه يعرف أن اللغات الأخرى فيها من المشكلات مثل ما في اللغة العربية أو أكثر... وقد تم الاتجاه إلى التغلب على هذه الصعوبات أو المشكلات بأمرين:

1- ألقت كتب قواعد العربية بأساليب جديدة.

2- تم تغيير طرق التدريس.

"ونشأت أجيال الطلاب بعد ذلك على كتب حديثة ميسرة واضحة لا صعوبة في عباراتها ولا التواء، غنية عن الشرح والتعليق"⁽⁶⁾

إن الأمر لم يكن في حقيقته أمر صعوبة في القواعد، لكنه أمر من كان يسير ويدبر للكيد والتخريب. وما يرويه الأفغاني يؤكد صدق نظرية المؤامرة في هذا المجال، وقد مرّ بنا خبر "مرجسويث" وسنقل الآن خبر "ماسينيون" قال الأفغاني: "أول ما أعرف من محاولات الأجانب في هذا الموضوع ما حدثني به المرحوم الأستاذ محمد سليم الجندي⁽⁷⁾ أيام الاحتلال الفرنسي قال: "هبط المستشرق المسيو ماسينيون دمشق في أوائل سنوات الاحتلال، فاتصل به - بطبيعة الحال - زملاؤه من أعضاء المجمع الذين بينه وبينهم معرفة فألقى إليهم في جملة ما ألقى "أن إهمال

⁽¹⁾ أحمد لطفي السيد 1870-1963 رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة. كان يسمى أستاذ الجب. ترجم بعض آثار أرسطو إلى العربية. الأعلام: 1: 200.

⁽²⁾ محمد تيمور 1892-1921 كاتب قصصي مصري، مولد ووفاته بالقاهرة. الأعلام: 6: 22.

⁽³⁾ عبد العزيز عبد الحق: لم أقع له على ترجمة. وانظر تاريخ الدعوة إلى العامية 123-149.

⁽⁴⁾ انظر تاريخ الدعوة إلى العامية 144-146.

⁽⁵⁾ حاضِر اللغة العربية 192.

⁽⁶⁾ حاضِر اللغة العربية 192 وقد ذكر الأفغاني الكتب الميسرة وهي كتب الشرتوني والبستاني والغلاييني في ساحل الشام والنحو الواضح في مصر وغيرها جميعاً كتاب (الدروس النحوية) لحفني ناصف ورفاقه....

⁽⁷⁾ محمد سليم الجندي 1881-1955، شاعر، مدرّس عالم بالأدب، من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق. الأعلام: 6: 148.

الإعراب ييسر تعليم العربية على الأجانب ويكون في الوقت نفسه تجديداً يليق بمؤسسة كالمجمع" فنناقشه بعض وسكت بعض، إلا أن أحداً لم يعر هذه المقالة اهتماماً ما"⁽¹⁾

وذكر الأفغاني أن الفرنسيين أدركوا أنه لا جدوى من هذه المحاولة في الشام الداخلية (سورية) لكنه أشار إلى أن أحد أعضاء المجمع - لم يذكر اسمه - تربص قليلاً حتى نسي أعضاء المجمع دعاية المستشرق الفرنسي، ودس في مجلة المجمع على غفلة من أهلها كلاماً عنوانه: "أقرب الطرق إلى نشر الفصحى" "فردد ما كان رده الأجانب على أسماع أجدادنا من تفضيل العامية، وزعم أنها اختزل للفصحى وعدول إلى ما هو الأنسب وأن يدال الكلمات الفصحى والإعراب بالعامية غير ممكن لأنه مقاومة للطبيعة، وانتهى إلى أنه لا يصح التشاؤم بالعامية إلى حد إماتتها"⁽²⁾

وعَلَى الأفغاني على المقال المشار إليه بقوله: "وكلّ هذا الباطل بليّ من كثرة الترداد الممجوج، لكنّ الجديد الذي أضافه الكاتب هو اللعب بالتاريخ والافتراء على حديث الرسول ﷺ حين حمّله على نصر هذه الدسيّسة الأجنبية التبشيرية فقال: في نهْي الرسول عليه الصلاة والسلام عن التَشَدُّق والتَقَرُّ: "وماذا عساه يكون أسلوب التكلّف والتَشَدُّق المنهْي عنه سوى الذي يَطم به المتكلم صوته ويحرّك شفاهه بحركات الإعراب، وهذا تطوُّع لتأييد الافتراء بتزييف التاريخ وتزوير المعاني على الألفاظ - ومصادمة البدائنه عجيب غريب" (3) أقول: وكان الأعجب من ذلك بالنسبة لي أن يكون صاحب المقال الذي لم يذكر الأفغاني اسمه هو الشيخ عبد القادر المغربي (4) فمثل هذا الرجل في علمه وفهمه وإنقانه لم يكن له أن يورط نفسه في مثل هذا الخلط. قال الأفغاني "ولا أشك في أنّ الكاتب يعتقد عكس ما كتب إذ هو على حظّ من العلم والفهم، ولكنّ الذوبان وقابلية التسخير للقوّة المحنّلة بقيسّان ذراعاً كلما قاست هي إصبعاً، وأيّ استجابة أسرع من أن ينتهي الكاتب إلى الحكم الفاسد الآتي حين جلس مجلس القاضي من الإعراب فقال: "على أنّ في مراعاة قواعد النحو من إلحاق علامات الإعراب بالجمال التي تتألّف منها أحاديثنا ومحاوراتنا تقريباً في الوقت وتضييعاً له... وفي عدم مراعاتها توفيراً للوقت وحرصاً عليه" (5)

وقد نال الكاتب الذي لم يذكر الأفغاني اسمه وسام "الجيون دونور" الفرنسي مكافأة له (6). واختفت هذه المحاولات بعد ذلك حتى تسلم الكاتب نفسه إدارة المجمع والمجلة فمرّر مقالاً فيه غمز للعربية، فاستعظم نشر مثله في مجلة المجمع واضطر الشيخ المغربي أن ينشر ردوداً كتبها بعض

(1) حاضر اللغة العربية: 192.

(2) المرجع السابق: 193 وعنه: مجلة المجمع العلمي العربي 3: 236.

(3) حاضر اللغة العربية 193-194.

(⁴) عبد القادر بن مصطفى المغربي الطرابلسي 1868-1956 نائب رئيس النجم العلمي العربي بدمشق. أصله من تونس وولد

باللاذقية ونشأ في طرابلس الشام ثم استوطن دمشق الأعلام 4: 47.

(5) حاضر اللغة العربية: 194.

(6) المرجع السابق 194.

الكتاب الآخرين رداً على المقال المذكور وكان منهم سعيد الأفغاني⁽¹⁾.

ويبدو أنه حتى ذلك الحين كان هذا الصوت - صوت المغربي - نشازاً في بلاد الشام (سورية) ليس له ثأن ولا ثالث، فقد جُوبه بردود صارمة وردة فعل عرفت الآخرين أنه لا مجال للدخول إلى إفساد اللغة في بلاد الشام مهما كان العنوان برافاً والدعوة مخادعة، وإذا كانت هذه الدعوة قد انتهت في بلاد الشام عند هذا الحد فإنها لن تلبث أن تطل برأسها في مناطق أخرى في ساحل الشام وفي مصر، فبعد ذلك بزمن سيعلو صوت الدكتور إبراهيم أنيس⁽²⁾ في كتابه "من أسرار العربية" ليزعم أن حركات الإعراب لا صلة لها بالمعاني⁽³⁾، ويدعو إلى استخدام الوقف⁽⁴⁾، ويزعم أن هذه العربية هي من صناعة صنّاع الكلام⁽⁵⁾ (النحاة) وقد ردّ عليه وفند مزاعمه الدكتور مازن المبارك⁽⁶⁾ في كتابه "تحو وعي لغوي".

على كل فقد اكتفى الأستاذ الأفغاني بعرضه لادعاء صعوبة الإعراب عند هذا الحد، ثم أفصح عن موقفه تجاهها، وكان موقفه موقف المتفائل، فإنه كان يعتقد أن مثل هذه الدعاوات لا مستقبل لها، وأن المشكلات المعلن عنها هي مشكلات حقيقية لكن حلولها عديدة بل ناجزة، فمشكلة صعوبة المؤلفات تصدى لها نفر من المخلصين، وأصبحت كتبهم هي المعول عليها في التعليم العام، ككتاب جامع الدروس العربية للشيخ مصطفى الغلاييني⁽⁷⁾ وكتاب الدروس النحوية لحفني ناصف⁽⁸⁾ ورفاقه. وكان الأفغاني شديد الإعجاب بكتاب حفني ناصف على وجه الخصوص، قال: "مهما يكن فقد أحسن فضلاء بوجود صعوبة واندفعوا يطبّون لها: فكان لها من ذلك علاج ناجع منطقي هو الذي فعله الأساتذة الأجلاء (حفني ناصف ورفاقه) في مصر بتأليف هذا الموجز المركز السليم لطلاب المدارس الابتدائية، بحيث لا يحتاج غير المختص طول عمره إلى أكثر من الحلقة الأخيرة في النحو والبلاغة وهي نحو مئة وأربعين صفحة من القطع الصغير، وفعل قريباً منهم بعض المؤلفين في الشام قبلهم وبعدهم. هؤلاء الفضلاء عرفوا أن العلاج في تيسير التأليف وتسهيله وحسن عرضه واتباع الأساليب التربوية الحديثة لا في القواعد ذاتها"⁽⁹⁾.

⁽¹⁾ المرجع السابق: 195.

⁽²⁾ إبراهيم أنيس 1906-1978 لغوي من أهل القاهرة. كان عضواً في مجمع القاهرة للغوي. إتمام الأعلام: 14.

⁽³⁾ من أسرار اللغة: 225.

⁽⁴⁾ المرجع السابق: 224.

⁽⁵⁾ المرجع السابق: 183.

⁽⁶⁾ مازن المبارك ابن عبد القادر ولد في دمشق 1930. درس في كلية الآداب بقسم اللغة العربية وجامعة قطر وكلية الدراسات الإسلامية والعربية بدمشق. انظر معجم المؤلفين السوريين في القرن العشرين: 464.

⁽⁷⁾ مصطفى بن محمد سيم الغلاييني 1886-1944 نحوي شاعر، أديب. مولده ووفاته ببيروت. من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق. الأعلام 7: 244.

⁽⁸⁾ حفني ناصف 1856-1919. قاضي أديب. تعلم في الأزهر. الأعلام 2: 265.

⁽⁹⁾ حاضر اللغة العربية: 197.

إنّ دعوات الدخلاء من الخارج والمخدوعين بهم أو المأجورين لهم في الداخل لم تذهب هباءً، بل فعلت فعلها وانتقلت إلى مجال وزارات التربية وجرّت محاولات في التيسير والتبسيط كلّفت وقتاً ومالاً ثم انكشفت الحجب عن الخدعة "ونجح أرباب الخرافة في شيء واحد هو اهتمام الناس بها، فنار حولها جدل ومعارك قلمية عوقت الناس زمناً وشغلتهم عما يفعمهم وألتهّم عن المضى في الجِد. ولا يخفى قيمة هذا على مكر العدو المتربص اليقظ"⁽¹⁾ وقد انتهى الأمر بهذه المشاريع المشبوهة إلى أن رفضها المدرسون في مصر وسورية.

لسم يعرض الأفغاني لتأريخ الدعوة إلى العامية في ساحل الشام إلا لماماً وفي بعض حواشيه، وكان على ثقة بالمخلصين الذين يتصدّون لهذه الدعوات. ومع ذلك فما زال هناك في ساحل الشام عملاء حقيقيون مأجورون مسخرون إلى يوم الناس هذا يجأرون بدعواهم وينفقون المال — ليس من جيوبهم — ليطبعوا كتباً بالعامية بالحرف اللاتيني وقد رأيت واحداً منها وعانيت معاناة قاهرة في قراءة صفحة منه، ومنذ سنوات سمعت الشاعر سعيد عقل يقول للجميهور في أبو ظبي إنه ينظم قصائده بثلاث لغات هي: العربية والفرنسية واللبنانية، وهو يعني باللبنانية عامية منطقته التي يعرفها والتي تختلف عن عامية طرابلس وصيدا والبقاع!!!

ووضع هذه الفئة الآن أقل بكثير مما كانت عليه أيام كتب المرحوم الأفغاني كتابه (1961) وكان اجتزأً بتعليق موجز عن المشكلة في ساحل الشام: "أما في ساحل الشام فليس في الأمر اتخاذ، إن الذين تعرضوا لعب اللغة العربية ونصبوا أنفسهم مصلحين لها مخادعون سخرهم الأجانب في عداوة اللغة والكيد لها، ومهدوا لهم منابر التدريس في كلياتهم وإرسالياتهم التبشيرية التعليمية، وأدّوهم بنفقات النشر والمكافآت، يقطر الكره والحقد والتشفي من أعلامهم على الأسطر حينا وبين السطور أحيانا، فلنتركهم لما بهم، يقتلهم غيظهم بطيئاً، فالطبيعة ماضية لطبيعتها، غير عابئة بضغن ذوي الأهواء الذين لا يفهمهم إلا أن تنقلب الأمة العربية الواحدة شعوبا بسبعين لغة، كلين غير لغة القرآن، وهيئات..."(2)

هذا عرض لجانب هام من جهود الأستاذ الأفغاني في خدمة العربية والتأريخ لها، وقد أثرت أن أعرض لدفاعه عن العربية ضد دعاة العامية وكتابة العربية بالحرف اللاتيني ودعاة إلغاء الإعراب... ومن لف لفهم وانتهج سبيلهم، لأنهم على الرغم من هزيمتهم المحققة أمام تطور الحياة ونمو التعليم لا يزالون يطلون برؤوسهم في كل مناسبة تسنح ليطعنوا في العربية بحجة العلم تارة وبحجة المصطلحات تارة أخرى وبما يترأى لهم. والمشكلة ليست في العملاء المسخرين، فيؤلاؤ يكشف أمرهم سابقاً أو لاحقاً، وإنما المشكلة في أولئك المغرر بهم الذين يتبرعون بالجدل والمناقشة ليكونوا خدماً بالمجان لأغراض استعمارية هدامة.

(1) المرجع السابق 198.

(2) حاضر اللغة العربية: 198

رحم الله أستاذنا الأفغاني الذي لم يأل جهداً في خدمة العربية وتاريخ العرب، وفي تعليم نحو اللغة وصرفها وأدبها طوال حياته في الشام ثم في بلاد عربية أخرى.



مراجع البحث

- 1- أباطيل وأسمار: محمود محمد شاكر. ط2 - مط
المنني. القاهرة 1972.
- 2- إتمام الأعلام: د. نزار أباطة - محمد رياض
المالح. دار صادر. بيروت 1999.
- 3- الأعلام: خير الدين الزركلي. دار العلم للملايين.
بيروت 1979.
- 4- بلوتولاند: لويس عوض. مط الكرنك بالفجالة -
1947.
- 5- تاريخ الدعوة إلى العامة وآثارها في مصر. د.
نفوسة زكريا سعيد. الإسكندرية 1964.
- 6- تاريخ الدعوة العلية العثمانية. محمد فريد بك
المحامي. دار الجيل. بيروت 1977.
- 7- التبشير والاستعمار في البلاد العربية: د.
مصطفى الخالدي. د. عمر فروخ ط2. المكتبة
العصرية - صيدا 1957.
- 8- حاضر اللغة العربية في الشام. سعيد الأفغاني.
معهد الدراسات العربية العالمية القاهرة 1961.
- 9- حياة اللغات وموتها؛ اللغة العامة. الخوري
مارون غصن. المطبعة الكاثوليكية. بيروت
1925
- 10- ذيل الأعلام: أحمد العلونة. دار المنارة - جدة
1998.
- 11- فهرس مجلة المجمع العلمي العربي. ج1.
وضع عمر رضا كحالة. مطبوعات المجمع
دمشق 1956.
- 12- معجم المؤلفين السوريين في القرن العشرين.
عبد القادر عياش. دار الفكر - دمشق 1985.
- 13- من أسرار اللغة. د. إبراهيم أنيس. ط3 مكتبة
الأنجلو - القاهرة 1966.

